

المقامات الخلبية :

3- نعم ولا *

د. يوسف العثماني

(تونس)

قال الكلب لصاحبه: ما الفرق بين (لا) و(نعم) في نباحكم؟ فأجاب صاحب الكلب: نحن لا ننبج في الحقيقة أيها الكلب، ولكننا نلغو وما بالنباح ينطبق علينا في باب المجاز: إلا أن مجازنا يشي بحقيقتنا في أغلب الأحيان.

(نعم) و(لا): جملتان تامتا المعنى، دائمتا التخاصم في الألسن البشرية، وهما في مطاردة مستمرة غير أن موقعهما يختلف باختلاف المجموعات البشرية.

تتجاوزُ (نعم) و(لا) وتتجاوزان لدى بعض المجموعات فيكون لكل واحدة منهما مجال لا تتجاوزه: مجال له من الخصائص ما به يتميز عن غيره. ويحتكم أتباع (نعم) بضوابط يعترف بها أتباع (لا)؛ وكذا العكس. وقد تتغير الظروف والسياقات فتتبادل الأدوار فيأخذ أصحاب (لا) موقعهم وراء (نعم). ويحتكم الجميع إلى قانون الأغلبية الذي به تصان حقوق الصنفين من الأتباع، فيكون النصر لمن تكاثروا عددا. وترضى الأقلية بما أجمعت عليه الأغلبية. وتبقى، وهذا الأهم، الأغلبية أغلبية والأقلية أقلية، ولكن يبقى في قرارة النفوس إيمان بأن كل وضعية آتلة إلى الأخرى وكل سياق إلى ضده منقلب ما دامت الآراء والأفكار والمواقف في تغير مستمر. فزيد اليوم هو عمر غدا ما دام الزمن في دوران وما دام كل فريق يعمل على افتكاك الموقع الأفضل.

ويشتد الخصام بين (لا) و(نعم) في بعض المجموعات الأخرى، فتظهر الفتنة بين الفريقين من الأتباع. فيقول أتباع (نعم): إِمّا (نعم) وإِما (فلا). فنحن القبول الذي يلغي الرقص ويقول أتباع (لا): لا محلّ إلا (للا) فنحن الرقص الذي لا يعترف بقبولكم بل ويصادره، إِمّا نحن وإِمّا أنتم إن وجدتم إلى ذلك سبيلا. ولا حق في الوجود إلا

* انظر المقامة الأولى والمقامة الثانية في : دراسات أندلسية 27 / 2002 ص 82 - 83.

لمجموعة واحدة من الأتباع، وإذا كان أتباع الفريقين في المجموعة البشرية الأولى يحتكمون إلى قوة الحجة فإنهم في المجموعة الثانية يعتمدون حجة القوة، لذلك ينتقي الحوار بين أتباع (لا) وأتباع (نعم) فيحل الهدم محل البناء وتغلب الفوضى ويستولي الخوف على النفوس بدل الطمأنينة، وتكون (نعم) من المحضورات لدى بني (لا) وتكون (لا) من الممنوعات عند بني (نعم).

تكون (نعم) في المجموعة الأولى جسر الانتقال نحو الأفضل وتكون (لا)، عن طريق المنافسة، حامية لها من الانزلاق إذ تتعاقب الاثنان لتحقيق الحلم الذي يمسى عليه الفريقان ويصبحان.

وتكون (نعم) في المجموعة الثانية نداء للغلبة وإعلانا للتسلط فترفضها (لا) وتسقط الاثنان في شقاق لا ينتهي ومخاصمة تجعل أتباعهما في مستنقع قد يصعب الخروج منه، إذ ينفي كل فريق حق خصمه في الوجود.

تكون (نعم) واعية تصدر عن إدراك عميق فتعبر عن الرضا بالوجود واقعا وعن المنشود حلما. وتكون (لا) ناتجة عن وعي بالمسؤولية فتختلف عن (نعم) في المنهج والوسيلة ولكنها تلتقي معها في المقصد والغاية. وتبقى قوة الحجة الحكم والفصل بين الموقفين المتلازمين:

إن (نعم) و(لا) وجهان لشيء واحد ولا معنى لإحدهما إذا افتقرت إلى قوة الحجة. وقد جاء في الأخبار أن الوليد بن يزيد دخل على هشام، وعلى الوليد عمامة موشاة. فقال هشام بكم أخذت عمامتك؟ فقال بألف درهم. فقال هشام: عمامة بألف؟، (مستنكرا ذلك). فقال الوليد: يا أمير المؤمنين إنها لأكرم أطرافي، أما أنت فقد اشتريت جارية بعشرة آلاف درهم لأخس أطرافك.

ويروى أن أعرابيا حضر على مائدة بعض الخلفاء فقدم جدي مشوي فجعل الأعرابي يسرع على المائدة في أكله منه، فقال له الخليفة: أراك تأكله بغضب كأن أمه نطحتك. فقال الأعرابي: أراك تشفق عليه كأن أمه أَرْضَعَتْكَ .

4-الكلب والقرد

قال القرد للكلب يوما : لَمْ لا نتبادل الأدوار ساعة أو بعض ساعة لنرى من أمر صاحبنا عجا؟ فأجابه الكلب: صحيح أننا نتساوي في ما يسلط علينا من شتم وإهانة عندما يحدث السباب بين الآدميين. وينعت بعضهم بعضا بالكلاب والقردة، غير أن شكك وشكلي لا يجعلان من عصي التتكر في وضعنا يسرا. فأنت في الخلقة إلى سيدنا أقرب وبه أشبه ولسلوكة أميل، لذلك فالقرد يبقى قردا ويبقى الكلب كلبا مهما تنكر وبالع في التتكر إذ لكل منا من إمارات المظهر ما يشي بدلائل المخبر. ثم كيف يتم ما تدعو إليه؟ وأين من وجه القرد وجه الكلب؟

سكت القرد قليلا ثم قال وفي نبرات صوته شيء من الإشفاق: خذ لك وجه قرد مستعار، وأفتني أنا بدوري وجه كلب مستعار، فما أكثر الوجوه المستعارة في أيامنا هذه !

هؤلاء الآدميون، وبهم نقندي، يتعاملون فيما بينهم بوجوه مستعارة، ويؤدون بها مختلف الأدوار فلا يميز مخبر الواحد منهم إلا بشق الأنفس. لقد مكنهم النفط من إيجاد كل ما في الطبيعة من أشكال وحركوها بالكهرباء فماعت وعوت وخارت ورغت ونهقت وزقزقت وهذلت ونعقت وتكلمت وضحكت وبكت وقفزت وجرت وسبحت وطارت وزحفت ومشت على اثنين وعلى أربع. أما الوجوه المستعارة فقد صنعوا منها ما يناسب كل ما يأتون به من سلوك.

فقال الكلب: وما الذي جعلك تقبل على دعوتنا إلى التتكر والأفضل أن يكون الكائن منا كما هو في فصيلة وملته؟

فأجاب القرد: أنا بصاحبي أشبه ولكنك تبقى أنت أيها الكلب إلى قلبه أقرب، فهو يخافني ويطمئن إليك. يرى في نفسه في بشاعتها فيخونني ويأتمنك، يؤرقه ما بينه

وبيني من شبه فيرتاب في أمري، إذ أذكره بخصائص حيوانية، وأقرب ما يفصل بينك وبينه وهو المغرور بالاستعلاء عن بقية الكائنات وعن غيره من بني جنسه. يريد أن يراك فيتفرد. ولا يريد أن يراني فلا تفصل بينك وبينه سوى درجة في سلم الارتقاء. سيدنا أيها الكلب متفكر لوجهه الحيواني لذلك يمقتني ويفضل عني ما لا يذكره بأصله، فخامرني فكرة خداعه لأنعم ببعض وده ولو إلى حين. سيدي، أيها الكلب لا يحبني لأنني راد إلى ذاكرته ما سفل من سلوكه. والحديد بالحديد يقطع.

المقامات الكلبية (1)

بقلم د. يوسف العثماني

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس.

1 - السيد في عين كلبه

قال الكلب لسيدّه : أنتم أبناء حواء مولعون برصد عيوبنا، ولكنكم لا ترون عيوبكم. ما نأتيه مما ترونه عيباً تُمليه غرائزنا فهو فينا جبلة. فحكمكم نسبي لا يخلو من ذاتية. أمّا ما يرشح منكم من عيوب فهو وليد ما به تتخلّقون. وهو ثمرة اكتساب كلّ ما تأتونه من سلوك وكلّما تبنونونه من علاقات تعتمدون فيه على الغشّ والاحتتيال فتغلب سيئاتكم ما لكم من حسنات.

أنتم يا سيدي مكمّن مثالب لا تحصى وأدواء لا شفاء منها وعيوب غمر سيلها الأرض وطال السماوات العلى.

أنتم أصحاب مقامات تذهل لأطوارها الكائنات ونعجب منها نحن الكلاب. أولسنا أكثر المخلوقات اطلاعاً على واقعكم وانخراطاً فيه؟ يا لتجليات الشرّ في واقعكم، واقع البشر ! أنتم يا سيدي مهرة في قلب الحقائق. في لغوكم سحر يوهم بسطاءكم فتتطلي عليهم الحيل ويرون في الباطل حقاً وفي الحقّ باطلاً. يُيدي أحدكم لصاحبه المودة بين يديه ويغدر به من خلفه. يلقي بعضكم من البعض الآخر ما لا يلقاه من بقية الكائنات مجتمعة. كأنكم يا سيدي محكومون بما حدث بين "قابيلكم" و"هابيلكم". الكواسر والضواري أرحم فيما بينها، وفيما بينها وبين فرائسها منكم فيما بينكم. يتسلّط بعضكم على بعض فتُكشف العورات وتُستباح الحُرّمات وتُمتصّ الدماء. أنتم يا سيدي - الإخوة الأعداء. يعاني الواحد منكم من أخيه ما لا يعانيه من حيوان مفترس هاجمه أو داء عضال أَلَمَ به. أنتم تفخرون بالمكر الذي يوقع بغيركم في حبال المكائد. إذا ما

(1) نواصل نشر هذا النصّ الإبداعي على التوالي في الأعداد القادمة من مجلة "دراسات أندلسية".

أوْتَمَنْتُمْ خُنْتُمْ. وَإِذَا مَا حَدَّثْتُمْ كَذَبْتُمْ. وَإِذَا مَا غَلِبْتُمْ تَشْفَيْتُمْ. وَإِذَا مَا تَمَكَّنْتُمْ تَجْبِرْتُمْ. وَإِذَا مَا حَلَفْتُمْ حَنَنْتُمْ. وَإِذَا مَا وَعَدْتُمْ أَخْلَفْتُمْ وَإِذَا مَا تَلَاظَفْتُمْ نَافَقْتُمْ. يَقْتُلُ أَحَدَكُمْ أَخَاهُ ثُمَّ يَنْتَظِرُ بِالْبَكَاءِ عَلَيْهِ. يَذْبَحُهُ بِبَيْمِينِهِ ثُمَّ يَنَادِي جَهْرًا بِالْوَيْلِ وَالْثُورِ لِلْمَعْتَدِي وَكَأَنَّهُ يَرَى مِمَّا ارْتَكَبَ. فَأَيَّ مَخْلُوقَاتِ أَنْتُمْ يَا أَسْيَادَ الْكِلَابِ !

2- الكلب والمزابل

سئل الكلب يوما : عمَ تبحث في المزابل كلما مررت بها ؟ فقال متنهّدا : فيها تتجمّع القمامة فتتخمّر فتتبعث الروائح المنعشة تعبت بأنوف الكلاب عبث السّحر . روائح القمامة تحرك فينا معشر بني كلب أحاسيس لا يتركها في النفس إلا كلّ معقّ من الأشياء.

المزابل محجّ خياشيمنا تظلّ ترحل إليها في اليوم ألف مرّة ومرّة. يحمل الخيال الواحد منا إلى المزابل حتّى إذا كان بعيدا عنها. عشقنا للمزابل يختزله المثل الشعبي لدى أسيادنا. ذلك الذي يقول -تعسفا- في احتقارنا : "مات كلب على زبالة".

المزابل مواقع تستهويننا، فيها ننزود بسخيّ الفضلات وطيبها. ونلقي فيها بفضلاتنا. في المزابل يحلو للكلب البحث عن عظيم قد يكون مطمورا. المزابل بالنسبة إلينا مصدر خير وبركة. قد تخفي من شهّي الطعام ما يدغدغ طمعنا ويثير نهمنّا.

المزبلة أفضل مزار يقصده الكلب. فيها تقوى حواسّ الشم فينا. وهي لا تختلف عما تعيشونه أنتم أبناء حواء عندما تتباغضون وتتعادون وينثر كل واحد منكم ما طمر من مزابل خصمه من قدر القول وردّيء الفعل فيصير أقواكم بطشا أكثركم انغماسا في مزابل غيره. أنتم الأسياد ونحن الكلاب على حدّ سواء، نسحر بروائح المزابل وتستهوي خياشيمنا قمامة الآخرين.